مقدمة

نشوء مصر وارتقاؤها

أنماط حضارية على ضفتى النيل

استقر الإنسان على ضفتى نهر النيل منذ نحو سبعة آلاف عام قبل الميلاد، وبعد أربعة آلاف عام من استقراره فى هذه المنطقة، تعلم القراءة والكتابة، وأقام مجتمعا وعمل خلال الثلاثة آلاف سنة التالية على تنميته. وازدهرت مصر رغم الصعوبات، والصراعات الداخلية والغزو الخارجى. وقد أطلق عليها «هيرودوت»، المؤرخ اليونانى الذى ذهب إلى مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد «هبة النيل».

الرياح والمياه

يعتبر النيل مصدر حياة جميع المصريين. فلولا ذلك النهر المقدس، لكانت هذه الأرض جميعها قاحلة، جافة بفعل حرارة الشمس القائظة والرياح. إذ تراجع سقوط الأمطار تدريجيا على منطقة مصر منذ حوالى بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، وبمرور الوقت انعدم تقريبا. وبدأ الناس يتمركزون على طول الشريط الضيق من الأرض على جانبى النهر، حيث عاشوا على صيد السمك، والقنص، والجمع، والزراعة وتربية الحيوانات. وظلت بقية المنطقة صحراء، تعرف باسم «دشرت» ـ بكسر الدال والراء(*) ـ (الأرض الحمراء)؛ وهى منطقة كان ينظر إليها باعتبارها تشكل شؤما ومحفوفة بالمخاطر، الناس يتجنبونها غالبا. أما التربة السوداء والشريط الضيق المحتل من الأرض بطول النيل فكان يطلق عليه «خمت» ـ بكسر الخاء والميم ـ («الأرض السوداء»)؛ وهو يقدم نقيضا حادا «للأرض الحمراء» الجرداء.

(*) الجملة الاعتراضية هنا للمترجمة لتوضيح نطق الكلمة، وسنسير على هذا النهج فى الكلمات الفرعونية التى نستشعر احتمال وجود إبهام فى طريقة النطق ـ المترجمة.

وحصل النيل على اسمه الحديث من الإغريق الذين أطلقوا على النهر اسم «نيلوس»، وهو أطول أنهار العالم - بطول نحو ٤٢٠٠ ميل - لكن عرضه لا يزيد عن ٥٠٠ ياردة. ومن إثيوبيا ينبع النيل الأزرق، بينما يأتى من أوغندا النيل الأبيض؛ ويلتقيان فى الخرطوم بالسودان ليتدفق النهر شمالا نحو مصر؛ ليصبح «إترو عا»(*) - بكسر التاء - (أو «النهر العظيم» كما يطلق عليه المصريون القدماء). والنيل هو النهر الكبير الوحيد الذى يتدفق شمالا؛ فروافده الكثيرة تنبع من الجبال جنوب خط الاستواء، ويخترق الطريق عبر التلال والمستنقعات على ضفتيه ليصب فى البحر الأبيض المتوسط، أو «وادج ور» - مع كسر الراء - («الأخضر العظيم») (كلا من «عا» و«ور» تترجم إلى «العظيم»). وهكذا يقع الوجه القبلى و «دشرت» فى المنطقة الجنوبية بينما الوجه البحرى، ومنطقة المستنقعات، والدلتا فى الشمال. وسميت المنطقتان «توى» («الأرضين»). ويطلق على المنطقة فى أقصى الشمال حيث تتفرع المياه إلى قنوات فى منطقة مثلثة الشكل، «دلتا»، وهو اسم الحرف الرابع من حروف الهجاء الإغريقية التى تماثلها فى الشكل.

وفى كل صيف، تؤدى الأمطار فى أفريقيا إلى ارتفاع مياه النيل فتفيض على الأرض لفترة من الوقت، مخلفة طبقة جديدة من الطمى - المثالى لنمو المحاصيل. وقدم الوادى الخصيب والمناخ الدافئ بيئة مثلى للقرويين أو «الفلاحين» ليصبحوا مهرة فى علم الزراعة.

وقامت الحضارة المصرية القديمة على خصوبة التربة؛ فغرست البذور التى يمكن للنيل أن يتولاها - وحده - بالتغذية. وكان الفيضان السنوى يخلف وراءه أدغالا ضخمة من نبات البردى. وحولت هذه السيقان المتنوعة إلى ضروريات لا حصر لها، مثل الورق، والحبال، والقماش، والصنادل، والسلال، والحصير، والمقاعد والقوارب النهرية.

وكان مستوطنو هذه الأرض يترقبون فى أمل ارتفاع المياه إلى حد يكفى لتأمين الرى. ومع زيادة مناطق الاستيطان، ليس عدديا فحسب وإنما فى المساحة أيضا؛ تطلب الجهد الجماعى والالتزام بزراعة الأرض، تنظيما للعمالة المكثفة. وكانت أعمال

(*) يرى بعض الكتاب أن هذه التسمية أصل كلمة «الترعة» فى اللغة العربية - المترجمة.

الرى الآخذة فى التوسع مشروعا يتعين أداؤه على مستوى ضخم، الأمر الذى أصبح بدوره عاملا حاسما فى تطور المجتمع.

وصار قياس وتسجيل مستوى الفيضان سنويا أمرا ذا أهمية قومية، وأطلق على الأداة المستخدمة فى هذه المهمة «مقياس النيل». وهو يتكون من مؤشرات بسيطة فى شكل سلم هابط يؤدى إلى النهر، ويقوم مسئولون بملاحظة وتوثيق عمق المياه المرتفعة، ويستخدمون هذا المؤشر الاقتصادى لتحديد مستوى الضرائب بناء على المحاصيل المتوقعة للعام المقبل. وتراوح الارتفاع المثالى للمياه بناء على مقياس النيل بين ٢٥ و٣٠ قدما. وكان انخفاض المياه - أكثر من ستة أقدام دون المستوى المستهدف؛ يعنى نقص الغذاء، وربما المجاعة. بينما يعنى الارتفاع ستة أقدام فوق المستوى المستهدف كارثة أيضا: تدميرا للحواجز الواقية، والسدود، والبيوت المبنية بالطين، فضلا عن إغراق قرى بأكملها.

وفى السنوات الناجحة، يفيض النيل خلال شهور الصيف، ويغمر الوادى مهيئا المسرح للعام المقبل. وتتكون الدورة الزراعية من ثلاثة مواسم، تعتمد على دورة النيل. وكان الموسم الأول والأكثر أهمية يدعى «أخت» - بكسر الخاء -، وهو موسم الغمر الذى يستمر من منتصف يوليو حتى منتصف نوفمبر. ويلى «أخت» موسم «پيريت» أو «پوريت» وهو موسم الإنبات أو النمو، عندما ينمو النبات من منتصف نوفمبر حتى منتصف مارس. وأثناء تلك الفترة يعمل الفلاحون فى الحقل فى جنى الحبوب والكتان. والموسم الثالث، عندما يكون النهر فى أدنى مستوياته، مؤذنا بنهاية موسم الحصاد الممتد من منتصف مارس حتى منتصف يوليو، ويسمى «شمو» - بكسر الشين أو ضمها.

واعتقد المصريون القدماء أن منابع النيل نشأت فى الفردوس - أو عند الشلال الأول قرب جزيرة «فيلة». واعتقدوا أن مياه النيل ذات قيمة غذائية؛ فهى لا تمثل فحسب رمزا للنقاء والتجدد، وإنما تصوروا أيضا أنها تمنح الحياة لمصر كل عام، كونها تسبب الفيضان. واعتقدوا أيضا أن النهر يحمل خصائص علاجية معينة، وكثيرا ما استخدمت مياهه فى وصفات طبية.

وأهدى شعب مصر القديمة العديد من الأغنيات للنيل، مثل «ترنيمة للنيل» و«الهيام بالنيل" و «ترنيمة لحعپى». وكان «حعپى» بفتح الحاء ـ إله النيل وحيد الجنس(*)، وكان يعرف أيضا بأنه «ابن النيل». ومع ذلك، لم يكن «حعپي» يعتبر مسئولا عن الفيضان. وأوليت هذه المسئولية الجليلة والخطيرة إلى «خنمو» ـ بكسر النون ـ الذى كان يعبد باعتباره «إله الفيضانات». ونسب إليه المصريون «اطلاق المياه» من الشلال الأول حيث اعتقدوا أنه يقيم . واعتاد شعب مصر التعبير عن عميق الامتنان للنيل و إلهه لوفرة المحاصيل التى توفر غذاء يكفى للعام المقبل.

الملوك والفوضى

نشأت مصر القديمة منذ ما قبل عصر الأسرات فى ٣١٠٠ قبل الميلاد ، واستمرت حضارتها لعصر الأسرات ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام. وخلال القرن الثالث بعد الميلاد، تولى المهمة الهائلة المتعلقة بتصنيف التاريخ المصرى، للمرة الأولى، باحث وكاهن مصرى يدعى «مانتو»(**) ـ بكسر النون ـ ، من «تچبنيتر» ـ بكسر الجيم وتسكين الباء ـ (سيبنيتوس) . وبناء على طلب الملكين «بطليموس الأول» و«بطليموس الثانى»، أعد «مانتو» قائمة مرتبة زمنيا عن الفراعنة السابقين و فترات حكمهم. وقسم التاريخ المصرى إلى ٣٠ أسرة (سلسلة من الحكام الأقارب تنتهى كل منها بوفاة فرعون بلا وريث، أو عندما ينجح حكام من خارج الأسرة فى قطع التتابع). وعلى مر العصور، أبقى المؤرخون على هذا التصنيف؛ وقاموا بدورهم بتقسيم قائمة «مانتو» للملوك إلى فترات زمنية ثلاث أطلق عليها «الدول» وثلاث فترات أخرى من الاضطراب السياسى الداخلى سميت بعصور الاضمحلال.

(*) بعض الآلهة المصرية كانت إناثا والبعض الآخر ذكورا، أما حعپى فكان يحمل داخله صفات الجنسين فى إله واحد متكامل، وكان المصريون يصورونه على هيئة إنسان بدين منبعج البطن ذى ثديين متدليين. ولونوه باللونين الأخضر والأزرق (بلون مياه الفيضان) وهو عارى الجسم طويل الشعر، وفق ما جاء فى معجم الحضارة المصرية الصادر ضمن سلسلة مكتبة الأسرة، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ـ المترجمة.

(**)يكتب أحيانًا باللغة العربية «مانيتون»، وورد فى «معجم الحضار ة المصرية القديمة»، إنه: «أحد أعاظم المتعلمين فى الكليات الكهنوتية، عاش فى معبد سبينيتوس القديم فى بداية القرن الثالث ق.م. . . كان يقرأ اليهروغليفية وتعلم الديانة المصرية لكنه كان يعرف الإغريقية أيضًا. وقد ألف الكتب التى شهرته بهذه اللغة» ـ المترجمة.

ويجدر أن نضع فى الاعتبار أن التواريخ غالبا ما تتفاوت بعدة مئات من السنين، وفقا للمصدر التاريخى الذى يرجع إليه المرء. وفى بعض الأحيان تتداخل التواريخ بسبب تقليد الوصاية على العرش الملكى.

ومن المتفق عليه بوجه عام أن الأسرة الأولى بدأت مع توحيد القطرين على يد الملك «نعرمر» سنة ٣١٠٠ ق م، وهو ما يجعله أول الفراعنة. فقد احتل ملك الوجه القبلى «نعر مر» الوجه البحرى، وهكذا وحد القطرين تحت حكم واحد للمرة الأولى فى التاريخ. (وهناك رواية منافسة تقول أن هذا الشرف يعود إلى الملك العقرب أو الملك «مينا» - و ربما كانا شخصا واحدا). و استطاعت مصر، باعتبارها كيانا واحدا موحدا، أن تستفيد وتزدهر من التعاون بدلا من المنافسة.

وفى ذاك الوقت ظهرت «الهيروغليفية» للمرة الأولى. فمع اندماج الشعب، ظهرت الحاجة لتحسين الاتصال لضمان الاستفادة من ثمار النمو السكانى، والفوز بالإدارة الناجحة وتنمية البلاد.

وأقيمت عاصمة مصر الموحدة حديثا فى «من نفر» (منف) ومعناها « راسخة وجميلة». واختير موقعها بسبب وضعها الاستراتيجى عند رأس الدلتا بين الوجهين القبلى والبحرى. وعرفت «منف» ايضا باسم «إنب - هدج» - بكسر النون - ومعناها «الجدار الأبيض» (فى إشارة إلى الجدار الأبيض الذى يحوط القصر الملكى، أهم معالم البلدة). وكانت «منف» أو «إنب - هدج» العاصمة الرسمية للأسرة الثالثة، وظلت مركزا دينيا وإداريا مهما خلال تاريخ مصر القديمة. وبنيت فيها الأهرامات والمقابر الملكية فى الجيزة وسقارة حاليا.

وازدهرت مصر خلال عصور الدولة القديمة، والوسطى، والحديثة. و يفصل بين هذه الإمبراطوريات فترات من الصراع والانهيار تعرف باسم عصور الاضمحلال الأول والثانى والثالث. وعندها كانت مصر تفتقر إلى حكومة مركزية قوية وتعانى من الاضطرابات السياسية الداخلية. وجذبت التجارة الخارجية والاتصالات مع البلدان الأخرى اهتماما وطمعا من القوى الخارجية أيضا، مما تسبب فى الغزو الأجنبى.

وتشكل الأسرتان الأولى والثانية عصر الأسرات المبكر، أو العتيق، أو «الحقبة الثينية»(*).

وبدأت الدولة القديمة خلال عصر الأسرة الثالثة، نحو ٢٧٠٠ قبل الميلاد. وتعرف هذه الفترة باسم عهد الاستقرار، أو عصر الأهرامات. فقد شهد المصريون الهدوء والازدهار لمدة ٥٠٠ عام، خاصة أثناء عهد الأسرة الرابعة، حيث تحققت إنجازات هائلة فى الفن والعمارة ظهرت فى شكل تشييد الأهرامات. وإبان هذه الفترة، أنشئ نظام إدارى فعال، وأصبحت الحكومة أكثر مركزية. غير أن الإدارة المركزية تعرضت لتدهور ظهر نتيجة تشتيت المهام والسلطات. وأدى هذا الاعتلال إلى انهيار مجتمع الدولة القديمة فائق التنظيم.

وشهدت الأسرة السابعة ظهور أول عصر اضمحلال (نحو ٢١٥٠ ق م). وكانت تلك فترة صراع داخلى، وثورة، وأعمال شغب، وإضرابات، وحرب أهلية استمرت حتى عصر الأسرة العاشرة (نحو ٢٠٥٠)، فى أوائل الدولة الوسطى.

وتعرف الدولة الوسطى أيضا بأنها حقبة العظمة والنهضة. و إليها يرجع أروع أنواع الأدب المصرى وأبدع حرف الحلى والفنون، التى لا تضاهى. وكانت الدولة الوسطى فترة ازدهار، حيث أعيد إصلاح الإدارة، وأنشئت مدن جديدة. وتوسع المصريون حتى النوبة وزادت قوتهم السياسية، وتجارتهم الخارجية واقتصادهم. . وفى هذه الفترة ظهرت طبقة اقتصادية جديدة (طبقة متوسطة) وأصبح لها نفوذ، حيث ضمت نوعية جديدة من السكان، راغبة فى العمل الجاد من أجل نمو وتوسعة البلاد، ومؤهلة لذلك.

وخلال الدولة الوسطى، ظهرت للمرة الأولى «أواست» أو «واست» (طيبة، أو الأقصر والكرنك حاليا). وأصبحت أواست (وتعنى «السيادة») عاصمة الدولة خلال عهد الأسرة الثانية عشرة. وكانت موطن أهم المراكز الدينية وأكثرها ثراء حتى العصر

(*) هى الحقبة التكوينية للحضارة المصرية، وأشار إليها مترجما معجم الحضارة المصرية باعتبارها (الطينية)، غير أن المعجم يوضح أن التسمية ترجع إلى مدينة «ثنى» التى جاء منها «مينا» موحد القطرين، ولم يرد فى تعريف المعجم أى إشارة للطين، وإن كان بعض الكتاب مثل المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة» ترجم اسم المدينة التى نشأ فيها مينا Thinis إلى مدينة «طينة» وربما كان ذلك سبب تسمية هذه الحقبة عند المترجمين بالطينية، لكننى آثرت اسم «الثينية» خشية الالتباس ـ المترجمة.

المتأخر؛ فقد بلغت ذروة مجدها كعاصمة لمصر خلال الدولة الحديثة، وخاصة خلال الأسرة الثامنة عشرة، عندما صارت بمثابة قلب مصر الدينى. ومع ذلك، تسببت قوى خارجية (من الشرق أساسا) فى انقسام الدولة، لتنهى عصر الدولة الوسطى.

وبدأ عصر الاضمحلال الثانى مع انهيار الدولة الوسطى خلال عهد الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٧٧٥ ق م). واستمرت فترات الاضطراب لما يزيد عن قرنين؛ واتسمت بالفوضى، وبفترات حكم قصيرة تولاها حكام أجانب ضعاف. وخلال عهد الأسرة الرابعة عشرة تولى حكم مصر «الهكسوس» الآسيويون، الذين أطلق عليهم «الملوك الأجانب» أو «الملوك الرعاة». وأقام «الهكسوس» - الذين عبروا الصحراء واستقروا قرب الحدود الشرقية لمصر - مراكز تجارية فى أنحاء الدلتا، باسطين سيطرتهم فوق معظم هذه المنطقة. ولا تعرف أصول الهكسوس على وجه الدقة، ولكن معظم الباحثين يرجحون أنهم ربما جاءوا من فلسطين أو سوريا. وكان هؤلاء «الآسيويين الحقراء» كما أسماهم المصريون ذوى شعر أكرت، ولحى مجعدة كما يظهر من صور تلك الفترة. وأقيمت العاصمة الجديدة عند «پر رعمسو» - بكسر الباء - (بيت رعمسيس)، أو ما يعرف باسم بلدة «أواريس».

وأخيرا عندما طرد الملك «أحمس» الهكسوس، وأعاد بذلك توحيد مصر، كانت الدولة الحديثة تستهل عصرها. وبدأت الدولة الحديثة مع الأسرة الثامنة عشرة (نحو ١٥٥٠ ق م)؛ وتعرف هذه الحقبة أيضا بالحقبة العظيمة والعصر الذهبى، وخلال هذا العصر، قدر عدد سكان مصر بما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة، وهو رقم ضخم للغاية فى تلك العصور.

وشهدت الدولة الحديثة، أشهر الشخصيات التى حكمت أرض مصر. فقد تولى الحكم فى هذه الفترة الزاهرة فراعنة مثل: «تحتمس» الأول حتى الرابع، و«حتشبسوت»، و«أمنحتب» الأول حتى الثالث، و«أخن آتون» (أمنحتب الرابع)، و«توت عنخ آمون»، وسيتى الأول والثانى. كما ظهر عصر الرعامسة أيضا خلال الدولة الحديثة؛ من عهد رعمسيس الأول وحتى الحادى عشر. وبلغت مصر مستويات عالية جديدة من السيادة والعظمة خلال عصر الدولة الحديثة. وأعيدت عبادة «أمون» (الخالق)، وعادت «أواست» مرة أخرى عاصمة للبلاد.

ومع ذلك، فخلال فترة حكم «اخن آتون» بالغة الإثارة للجدل، نقلت العاصمة إلى «أخت آتون» (العمارنة). وأسفرت الاختلافات السياسية والدينية بين الكهنة، والجيش، وكبار رجال الحكومة؛ مع ضغط أجنبى متزايد من «الهكسوس» و«الكوشيين» (النوبيين)، إلى القضاء على مركزية الدولة، وشكلت عاملا لدفع هذه الحقبة إلى نهايتها. وبدأ عصر الاضمحلال الثالث مع الأسرة الحادية والعشرين (حوالى ١٠٨٧ ق م). وفى ذلك الوقت، انهارت الإمبراطورية المصرية، واستولى عليها «الكوشيون»، وبعدهم «الآشوريون» الأقوياء.

وبدأ العصر المتأخر مع الأسرة الخامسة والعشرين (حوالى ٧١٢ ق م) عندما كانت مصر تحت سلطة «الكوشيين» - ثم تحت حكم الفرس مرتين بعد ذلك. وكانت تلك فترة متقلبة. ففى ٣٣٢ ق م، وصل الإغريق إلى الحكم، وأقاموا الأسرة الحادية والثلاثين، التى بدأت مع الإسكندر الأكبر، واستمرت باسم الحكم البطلمى. وانتقلت العاصمة إلى مستعمرة سميت «راكوتا»، وهى التى أعاد اليونانيون تسميتها باسم «الإسكندرية» على اسم مؤسس الأسرة والمدينة.

بيد أن الإمبراطورية تحطمت تحت ضغط الغزو الرومانى سنة ٣٠ ق م، الذى أنهى الحضارة المصرية القديمة وتاريخها وثقافتها. وأصبحت مصر ولاية تابعة لروما. ولم يعد الفراعنة لحكم البلاد بعد ذلك.

***